

نهاية امرأة القصور

كانت تعيش في أعظم قصر، وأكبر قصر، وأجمل قصر شهدته التاريخ... عيشة رغيدة.. راهية.. عالية.. سهلة.. لينة.. تتحول من جناح إلى جناح.. ومن بستان إلى بستان تتخير فيها ما تشاء.. الأرائك من ذهب.. والفرش من حرير.. وتدور الأقداح على الرؤوس.. ولها ما تشتهيها نفسها وتلد عينها.. عيشة كلها نعيم وترف وسرور..

لها من الخدم والحشم ما لا يُعدّون ولا يحصون...

لا تأمر بأمر إلا ونفذ قبل أن تقوم من مقامها..

قد حيزت لها الدنيا بحذاقها.. فقد كانت زوجة ملكٍ قد ملك ما لم يملكه أحد من الملوك..

فكان تحته الجند العظام الذين ينتظرون إشارة منه كفيلة لإبادة أمة بأسرها...

هي امرأة فرعون.. آسية بنت مزاحم..

امرأة كمل عقلها.. ورجح فكرها.. وهي من النوادر الأربع التي قال عنها النبي صلى الله عليه

وسلم: [كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة

فرعون وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام]¹..

امرأة عسلها الله... واستعملها.. فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: [إذا أراد الله بعبد خيراً

عسله قيل وما عسله قال يفتح له عملاً صالحاً قبل موته ثم يقبضه عليه]². وأي عمل

صالح يموت عليه العبد أفضل من الشهادة في سبيل الله وعلى كلمة لا إله إلا الله!؟

لما بلغت دعوة التوحيد آسية وخالطت بشاشة قلبها، وعرفت معنى لا إله إلا الله.. صدعت به

ولم تستطع كتمان هذه الكلمة الطيبة إلا وقد طفحت من صدرها إلى آفاق مصر.. فهزّ

مضجع الطاغية فرعون.. فأمرها أن عودي إلى دينك.. واتركي دين موسى.. فأبت إلا أن

تقول لا إله إلا الله...

فغضب غضباً شديداً وأمر بالجلاد أن يصب العذاب عليها صباً، فأوصدها وأوتدها وجعل

يجلدّها وهي صابرة محتسبة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: [إن فرعون أوتد لامرأته أربعة

¹ متفق عليه.

² رواه أحمد وصححه الألباني.

أوتاد في يديها ورجليها فكان إذا تفرقوا عنها ظللتها الملائكة فقالت: (رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين) فكشف لها عن بيتها في الجنة¹.

قال جل جلاله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا أَمْرَاتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١١)
التحریم: ١١

قال سيد: [وها هي ذي امرأة فرعون, لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه.. في قصر فرعون.. عن طلب النجاة وحدها.. وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتاً في الجنة، وتبرأت من صليتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه، وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهي ألصق الناس به: (ونجني من فرعون وعمله).. وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش بينهم: (ونجني من القوم الظالمين)..

ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثلاً للاستعلاء على عَرْضِ الحياة الدنيا في أزهى صورة، فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ، في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي.. ولكنها استعلت على هذا بالإيمان، ولم تُعْرِضْ عن هذا العرض فحسب، بل اعتبرته شراً ودينساً وبلاءً تستعيز بالله منه، وتتفلت من عقابيله، وتطلب النجاة منه!

وهي امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية.. وهذا فضل آخر عظيم، فالمرأة - كما أسلفنا - أشد شعوراً وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراته، ولكن هذه المرأة.. وحدها.. في وسط ضغط المجتمع، وضغط القصر، وضغط الملك، وضغط الحاشية، والمقام الملوكي، في وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء.. وحدها.. في خضم هذا الكفر الطاغوي!

وهي نموذج عال في التجرد لله من كل هذه المؤثرات وكل هذه الأواصر، وكل هذه المعوقات، وكل هذه الهواتف، ومن ثم استحققت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد.. الذي تتردد كلماته في جنبات الكون وهي تتنزل من الملاء الأعلى²..

¹ السلسلة الصحيحة 6/ 35 حديث رقم 2508

² في ظلال القرآن لسيد قطب ج 6 ص 3621 - 3622

يا لها من قوة.. يا لها من عزيمة.. يا لها من مصابرة.. باعت الدنيا وزُخرفُها وزينتها بلا إله إلا الله.. أين تلك الملكة التي كانت تحتها مملكة بأسرها لا يردّها شيء من رغبتها.. عرفت لما خالط قلبها لا إله إلا الله أن هذه الدنيا متاع وأنها فانية.. أنها بوابة عبور.. وعلمت أن الآخرة خير وأبقى.. وهي دار القرار.. وتيقنت أن الله لن يضيعها.. يقين وإيمان كالجبال..

إنها تعدل آلاف الرجال الذين لا يستطيعون الوقوف والصمود أمام الفتن في هذا الزمن.. ما أن دعا داعي الابتلاء إلا وتجد أحدهم ترعد فرائضه خوفاً من الحور بعد الكور.. زاغت أبصارهم وبلغت قلوبهم الحناجر ويظنون بالله الظنون..

إنها عبرة وعظة واعتباراً لكل رجل قبل كل امرأة... ذكرها الله في كتابه العزيز.. والله لو لم يكن لها هذا الشأن العظيم عند الله لما ذكرها في كتابه.. فكل شيء في كتاب الله عظيم..

أخلد ذكرها في الآخرين.. إلى يوم الدين.. هي صبر ساعة.. يوم.. سنة.. حتى تالاً اسمها وعطّرت سيرتها سماء الدنيا..

وما ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم أنها من خير نساء العالمين إلا لعظم شأنها فقال: **[وخير نساء العالمين أربع: مريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون]**¹.

فتأمل في حالها جيداً كيف أعمت عينها وقلبها عن زينة الحياة الدنيا وترفها وحظوظها، وتنور قلبها وتفتحت عينها للآخرة، فلما أغلقت قلبها عن الدنيا أبصرها الله الجنة ولما تدخلها.. كيف لا وهي التي عرفت أن اختيار الجار قبل الدار فقالت: (رب ابن لي عندك) فاختارت عندي الله وقرب الله وجوار الله جل جلاله، لأنها تعرف أن الله كريم وأن الضيف لا يعدم من مضيفه خيراً أبداً.. فكيف إذا كان المضيف هو الله والجار هو الله جل جلاله... ولما تركت قصر الدنيا أبدلها الله بقصر في الجنة..

¹ صحيح الجامع الصغير رقم 3328 صححه الألباني.

فهنيئاً مريئاً لهذه المرأة الكاملة.. المرأة المجاهدة.. [فأفضل جهاد كلمة عدل عند سلطان جائر]¹.. المرأة الصابرة.. المرأة الشهيدة.. بل سيدة الشهداء [ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله]².

أي نوع من النساء تلك؟! وأي تحمل للأذى هذا.. وكثير من النساء في عصرنا الحاضر مجرد أن تفقد شيئاً من تفاهات الدنيا انتكست وانقلبت على عقبيها خسرت الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.. وكأن الدنيا ضاقت عليها بما رحبت وضاقت عليها نفسها وذلك بسبب متاع من الدنيا تحوّل عنها..

أين من باعت دينها لأجل دنياها من آسية..

أين من توغلت في الملهيّات والمغريات من آسية..

أين من عبدت الدرهم والدينار من آسية..

أين من عبدت الخميّلة والقטיפيّة من آسية..

أين من إذا شِيكَت لا تُنتَقَش من آسية..

آسية بنت مزاحم امرأة أطغى وأعتى رجل عرفه التاريخ.. لم يجرأ أحد أن يدعي الربوبية غيره.. تجرأت هي أن تظهر الإسلام في ملكه وأمام طغيانه..

يا لها من سيرة عطرة.. تروّح عن المسلمين.. وتصبّر المبتلين.. وتجعل هذه السيرة سيرة يحتذي بها كل مبتلى..

فكل صابر على الابتلاء له مكانة عند الله وكلّ بحسبه، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: [أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأُمّثل فالأُمّثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلبا اشتد بلاءه وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة]³

ولولا اشتداد بلائها لما أوصلها أن تُذكر في كتاب الله تعالى..

¹ رواه الترمذي وصححه الألباني.

² رواه الترمذي وصححه الألباني.

³ رواه البخاري.

فأللهم ألحقنا بالأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وثبتنا على الحق حتى نلقاك..
وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين..

وكتبها: أبو جعفر محمد بن يوسف أهلي

التاريخ: 24 صفر 1431هـ

الموافق: 8 فبراير 2010م